

خريطة قراءة تاريخية

كيف وصل الحديث وحفظ؟ — ورقة الدرس

وصل الحديث عبر أشخاص تلقوا العلم، وحفظوه وكتبوا منه، ثم روه لمن بعدهم. ومع اتساع الرواية ظهرت مصنفات تجمع الأخبار، وبحوث تفحص الرواة وطرق النقل. وتوضح الشواهد نفسها كيف تعاونت هذه الأعمال: سماع ومشاهدة، وصحيفة مكتوبة، وإسناد معروف، وجمع ونقد.

لمن؟

للقارئ الجديد، ومن يقدم مدخلا قصيرا في البيت أو الحلقة أو الفصل قبل التوسع في كتب التاريخ وعلوم الرواية.

طريقة الاستعمال

الشرح أولا، ثم سؤال المراجعة. الإجابة في آخر الورقة والمراجع مع الفقرات.

01 البداية: صحبة وتعليم ثم تبليغ

كان الصحابة يتلقون عن النبي ﷺ بالسماع والمشاهدة والسؤال، ثم يعلم بعضهم بعضا ويبلغون من غاب. ومن أمثلة ذلك إقامة مالك بن الحويرث وأصحابه عند النبي عشرين يوما وليلة، وتوجيهه لهم إلى الرجوع إلى أهليهم وتعليمهم الصلاة. تكشف هذه القصة كيف انتقل التعليم من مجلس النبي إلى بيوت وأماكن أخرى.

التلقي هو أخذ الرواية من صاحبها بطريق معلوم، والتبليغ هو نقلها إلى غيره. وقد يكون الشيء المنقول عبارة سمعت، أو وصف عمل شوهده. ومع انتقال الخبر إلى جيل تال يصبح اسم من سمع أو شاهد جزءا من معرفتنا به؛ فالطالب ينقل عن معلمه، والمعلم عن قبله. ومن هذه الحاجة نفهم لماذا حفظت كتب الحديث أسماء الناقلين مع النصوص.

التعلم ثم تعليم الأهل — صحيح البخاري

تجمع القصة الإقامة للتعليم، والمشاهدة، والرجوع إلى الأهل لتعليمهم؛ وهي صورة عملية للتلقي والتبليغ.

كتاب الأذان، باب الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة، حديث 631.

المرجع الأصلي: sunnah.com

02 الكتابة موجودة في العهد النبوي

حفظ بعض الصحابة بالذاكرة، وضم بعضهم إليها الكتابة. ففي صحيح البخاري يذكر أبو هريرة أن عبد الله بن عمرو كان يكتب، ويقارن ذلك بطريقته هو في الحفظ. هذه شهادة صحابي على ممارسة الكتابة، وتبين أن وسائل التلقي والحفظ لم تكن واحدة عند جميع الصحابة.

وتأتي رواية عبد الله بن عمرو نفسه في سنن أبي داود بمزيد من التفصيل: كان يكتب ما يسمعه يريد حفظه، ثم توقف حين اعترض عليه بعض الناس، فسأل النبي ﷺ فأذن له بالكتابة. وهذا الإذن متعلق بتثبيت ما يسمعه منه. والرواية رقم 3646، وقد صححها الألباني كما هو مبين في بيانات المصدر.

وفي خبر آخر رواه البخاري، طلب أبو شاه، وهو رجل من أهل اليمن، كتابة الخطبة التي سمعها عند فتح مكة؛ فقال النبي ﷺ: «اكتبوا لأبي شاه». فالكتابة هنا تحفظ تعليمًا محددًا لينتفع به طالبه. وتثبت هذه الوقائع وجود كتابة للحديث في حياة النبي، فيما يبقى جمع الروايات في مصنفات واسعة عملا آخر له نطاقه وتاريخه.

شهادة أبي هريرة على كتابة عبد الله بن عمرو — صحيح البخاري

فإنه كان يكتب ولا أكتب

شاهد مباشر على اجتماع الحفظ والكتابة عند بعض الصحابة.

كتاب العلم، باب كتابة العلم، حديث 113.

المرجع الأصلي: sunnah.com

إذن النبي ﷺ لعبد الله بن عمرو بالكتابة — سنن أبي داود

اكتب فوالذي نفسي بيده ما يخرج منه إلا حق

يذكر الراوي قصده من الكتابة، ثم سؤاله النبي ﷺ وإذنه له.

كتاب العلم، باب في كتابة العلم، حديث 3646.

المرجع الأصلي: sunnah.com

كتابة الخطبة لأبي شاه — صحيح البخاري

اكتبوا لأبي شاه

طلب رجل كتابة الكلام الذي سمعه، فأمر النبي ﷺ بكتابته له.

كتاب اللقطة، باب كيف تعرف لقطة أهل مكة، حديث 2434.

المرجع الأصلي: sunnah.com

٣٠ كيف فهم النهي عن الكتابة مع الإذن بها؟

روى مسلم عن أبي سعيد الخدري قول النبي ﷺ: «لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه». وفي الرواية نفسها إذن بالتحديث عنه. فالسؤال الذي بحثه الشراح هو وجه اجتماع النهي عن الكتابة مع الأخبار التي تثبت الإذن بها، وكيف يفهم كل نص مع بقية النصوص.

يعرض النووي في شرحه عدة أجوبة: منها أن النهي كان بسبب الخوف من اختلاط الحديث بالقرآن، ثم جاء الإذن حين زال الخوف؛ وهذا تفسير بالنسخ، أي تغيير الحكم بين مرحلتين. ومنها أن النهي متعلق بكتابة الحديث والقرآن في صحيفة واحدة، فيكون الفرق في كيفية الكتابة. ومنها حمل النهي على من يعتمد على الكتابة فيهمل حفظه، والإذن على من يحتاج إليها.

هذه وجوه ذكرها العلماء للجمع بين الروايات، ولا تتضمن الأحاديث المذكورة تعيين تاريخ لكل نهى وإذن. وتختلف هذه الوجوه في تفسيرها: بعضها يجعل للزمن أثراً، وبعضها يربط الحكم بحال الكتابة أو حال الكاتب. لذلك نثبت ما تدل عليه الشواهد، وهو وقوع الكتابة والإذن بها، ونعرض لتفسير النهي بأقواله المنسوبة دون اختزالها في تسلسل زمني مقطوع به.

حديث أبي سعيد في النهي عن الكتابة — صحيح مسلم

وجود الرواية إلى جانب أحاديث الإذن هو منشأ بحث الشراح في الجمع بينها.

كتاب الزهد والرقائق، باب التثبت في الحديث وحكم كتابة العلم، حديث 3004.

المرجع الأصلي: sunnah.com

النووي — وجوه الجمع بين أحاديث النهي والإذن

يفرق عرض النووي بين تفسير يقوم على تقدم النهي، وتفسير يتعلق بالصحيفة، وتفسير يتعلق بحال الحافظ.

المنهاج شرح صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، شرح حديث 3004، الجزء 18.

المرجع الأصلي: www.islamweb.net

04 الإسناد يجعل طريق الخبر قابلاً للفحص

الإسناد سلسلة الأشخاص الذين نقل الخبر عنهم، والمتن هو نص الخبر في آخر السلسلة. فإذا ذكر المصنف أنه سمع من شيخ، ثم سمي الشيخ من نقل عنه، أمكن البحث في صلة هؤلاء الرواة بعضهم ببعض، وفي معرفتهم وضبطهم. هكذا يصبح للسؤال «ممن أخذت؟» جواب يمكن تتبعه.

ويورد مسلم في مقدمة صحيحه قول محمد بن سيرين عن اشتداد السؤال عن الإسناد بعد الفتنة، ومنه: «سموا لنا رجالكم». هذا كلام عالم من التابعين يصف عناية بمصادر الرواية. وتكمن دلالة هنا في إظهار الصلة بين قبول الخبر ومعرفة ناقله. وتسمية الراوي بداية الفحص؛ فمعرفة الاسم تنتج دراسة زمنه وشيوخه ورواياته ومقارنتها. ويشرح ذلك لماذا احتاج المحدثون إلى أخبار الرجال إلى جانب نصوص الأحاديث: فالخبر وصل عن طريق إنسان، وفهم طريقة نقله جزء من تقييم الخبر.

أثر ابن سيرين في السؤال عن الرجال — مقدمة صحيح مسلم

سموا لنا رجالكم

يشرح سؤال تسمية الناقلين سبب العناية بالإسناد وأحوال الرواة.

مقدمة صحيح مسلم، باب في أن الإسناد من الدين؛ الرقم الظاهر في المورد: Introduction 27، والترقيم الداخلي: الرواية 26.

المرجع الأصلي: sunnah.com

05 من الكتابة إلى الجمع في مصنفات

الكتابة تثبت خبر أو أكثر في صحيفة أو كتاب. أما التدوين فيستعمل في الحديث عن جمع المادة وحفظها، والتصنيف يبرز فيه ترتيبها وفق خطة؛ كجمع أحاديث موضوع واحد في أبوابه. وتستعمل الكتب التاريخية هذه الألفاظ أحياناً بمعانٍ متقاربة، ولذلك يفيد النظر إلى طبيعة العمل نفسه: ما الذي جمع، وكيف رتب؟

ومن شواهد العناية بالجمع ما أورده البخاري في صدر باب «كيف يقبض العلم»: كتب عمر بن عبد العزيز إلى أبي بكر بن حزم يطلب كتابة حديث النبي ﷺ، وذكر خوفه من ذهاب العلم بموت العلماء. هذا خطاب أورده البخاري في ترجمة الباب، أي الكلام الذي يقدم به موضوعه، قبل الحديث المسند رقم 100.

يربط الخطاب الكتابة باستمرار التعليم مع رحيل حملته. وهو يبين اتساع مقصد الجمع بعد وجود الكتابة الفردية التي تشهد لها روايات الصحابة. ثم يظهر أثر التصنيف في الكتاب الذي بين أيدينا: فقد جمع البخاري أخبار العلم في كتاب، ورتب داخله أبواباً للتلقي والكتابة وغيرها، ليسهل وصل الروايات بموضوعاتها.

وتنتظم هذه الأعمال في تعاقب واضح: كان التلقي وكتابة بعض الأخبار في حياة النبي ﷺ، ثم استمر نقل الصحابة وتلامذتهم، وجاء طلب عمر بن عبد العزيز جمع الحديث في عهد خلافته، ثم توسعت المصنفات التي تجمع الروايات وتبويبها، ومنها صحيح البخاري وصحيح مسلم. هذه مراحل في وسائل الحفظ والجمع، لا بداية جديدة للحديث عند كل كتاب.

خطاب عمر بن عبد العزيز في جمع الحديث — صحيح البخاري

فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء

«دروس العلم» ذهابه واندثاره؛ فالطالب متعلق بحفظ العلم واستمرار تعليمه.

كتاب العلم، ترجمة باب كيف يقبض العلم، قبل الحديث 100.

المرجع الأصلي: sunnah.com

06 الحفظ يشمل التمييز بين الروايات

تبقى مع جمع الأخبار مهمة نقدها. فالكاتب قد تحفظ لفظاً على وجهه، وقد تحفظ خطأ وقع في النقل؛ ولذلك يبحث المحدثون في صحة الرواية نفسها. ويلخص تعريف ابن الصلاح للصحيح عناصر هذا الفحص: اتصال السند، وعدالة الرواة وضبطهم، والسلامة من الشذوذ والعلة.

يتعلق الاتصال بأخذ الناقل عن فوقه، والعدالة بصدقه واستقامته، والضبط بإتقانه ما ينقل. وتظهر أهمية جمع الطرق حين تقارن رواية الراوي بما رواه غيره، فتتكشف موافقة أو مخالفة تحتاج إلى تفسير. ولهذا قد يروي المصنف الخبر من أكثر من طريق، وتبحث كتب العلل في فروق تبدو صغيرة لكنها تؤثر في الحكم.

فالسماح بحمل الخبر من جيل إلى جيل، والكتابة تثبته، والتصنيف يجمعه ويرتبه، والنقد يختبر نقله. وهذه الأعمال المتعاونة تفسر كيف نقرأ اليوم روايات مسندة ذات مصادر ودرجات، وكيف أصبحت دراسة الحفظ أيضاً دراسة للوسائل التي تكشف الخطأ وتفصل بين الأخبار.

ابن الصلاح — شروط الحديث الصحيح

وجود النص مكتوباً مرحلة من حفظه؛ أما الحكم بصحته فمبني على الشروط التي يشرحها هذا التعريف.

مقدمة ابن الصلاح، النوع الأول: معرفة الصحيح من الحديث.

المرجع الأصلي: ar.wikisource.org

07 سؤال وإجابة

لماذا بقي الإسناد مع وجود الكتب؟

لأن تثبيت الكلمات وبيان الطريق الذي نقلت به عملان متكاملان. تثبيت الخبر كتابة لا يبين وحده ممن تلقاه الكاتب. يجمع الإسناد والكتابة بين حفظ الكلام ومعرفة طريق نقله.

وسع من هنا

المقالات والمراجع

كيف وصل الحديث وحفظ؟

المقال الكامل وأدلته.

المقال في لماذا الحديث؟